محكمة العاشقين

خالد غانم

إسم الــكتاب :محكمة العاشقين
إسم الكــاتــب : خالد غانم
تصميم الغــلاف :عبدالله عباس
تدقيق لــغــوي :فاطمة هاشم
رقــم إيــداع :19220/2021
تــرقيم دولــي :978-977-6925-01-4

شارك سطورك مع العالم

محكمة العاشقين

خالد غانم

The Writer Operation

شارك سطورك مع العالم

{ الحـــب يجُـــب مـــا قبلـــه }

كلنا محبوسون في أقفاص ، وتبقي حريتنا معلقة ، على شرط أن نبادر إلى الحب ، فبالحب تصبح فلسفة الحياة هي اليقين ، وباليقين تبدد الأقفاص التي في مخيلتنا ، لتبدو مشاعرنا مجرد قضايا تصدر بها أحكام بالبراءة مبنية على أسباب مفادها أن الحب عنوان الحقيقة .

{ خالد غانم }

القضية المهمة

وليست مثل باقي الروايات .....

بدأت قصتي بأن تلك الحبيبة التي راودت أفكاري قديماً لم أكن مهتماً بها من قبل أو أشتاق لرؤيتها يوماً ما حتى أصاب سهم الحب صديقي العصفور .

ذات يوم انتابتني القشعريرة وشعرت بأنني أحتاج إلى لم لملمت أوراقي القديمة وأفكاري المبعثرة وقررت أن أجول ببصري نحو غاياتي المتعددة وصوب مشاعري المتناثرة والمغمورة بحبات الصدق والممشوقة بهامات الصبر والمكنونة بلذة العشق هنا كانت قصتي مع تلك الأميرة قد بدأت وبين قرية يسكنها العديد من المظاليم وخلف أسوار حديدية ونجوم فوق أكتاف البعض وصوت عال يأتي من بعيد (محكمـــــــــــــة) ....

حينها أدركت أن العاشقين في خطر ، وأن الأوراق قد غمرها المطر وتلاشت الحقيقة من فوق أسطر الحبر وقت ذلك كنت أشعر أنني عاجز عن مساعدة القلوب التي ضجت بسبب القيود وكبلتها أسقف البيوت وعانقتها رياح الحزن حينها نادى عصفور صغير وعانق قلبي وحاصر جنبات عقلي بيد أنه الظلام الغفير قد جاف النهار حتى صار العصفور حائراً بين أن يطير أو يسكن غصون الأشجار المنكوبة التي سقطت أوراقها في فصل الخريف .

وفي ذات المشهد راحت إحدى الأوراق المتساقطة تصرخ قائلـــــة :

أنا إلى أين ولما ذلك الزحام الرهيب أنقذوني أيتها الغصون ...

وكانت في ذات المشهد تنظر إليها ورقة أخرى وتبتسم قائلـــــة :

علام تبكين إذا كانت الشجرة التي أنبتتك قد باعتك هي سنة الحياة يا صغيرة غداً ستنمو بإذن الله في ذات الغصن أوراق جديدة – فأخذت الورقة المتساقطة تقول : لا لا ولم تستسلم .

وإذا بالعصفور الذي كان يحدثني من قبل يمرق فجأة ويعود بالورقة التي رفضت الاستسلام ويضعها فوق عشه الصغير وإذا بالورقة تفرح وتقول الحمد الله على وظيفتي الجديدة وإذا بها تسمع العصفور وهو يقول لي :

تمسك بالحلم حلق في سماء العدل اكتب مذكراتك لتكون سبباً في حرية البعض انهض من سباتك انفض غبار يومك الذي أصاب عقلك فتش في جزئيات روحك في كليات قلبك تملك نبضاً يعانق نسمات الحق ويلفظ معاني الصدق ويهجر أسوار الظلام أبحر في حبيبتك ولا تستسلم فربما سفينة روحك قد يعانقها شط النهار فلا تبالي وقـــــم .

كل هذه الأفكار المتلاحقة قد هبت نسماتها إلى خيالي وأنا في لحظة تيه أنظر إلى شجرة خارج رواق المحكمة أنتظر صديقاً لي قد يأتي لكي يحكي لي قصة الاتهام المرير وإذا بفتاة تعبر الطريق مسرعة وترتدي رداءً أسود ويحلق فوق كتفها

نسر وثلاث نجوم ذهبية يبدو أنها محامية فتبتسم لي وينشرح صدري فرحاً بتلك الابتسامة يبدو أنها جاءت لكي تدافع عن ذلك العصفور الأسير المزمع انعقاد جلسته اليوم وحينها كان يتصبب منى العرق ويتخلل ثنايا قلبي الحزن ويعتصرني الألم ويحاصر وجدي الظلام ولكن تلك الابتسامة المتصاعدة من فوق فم الفتاة الذهبية كانت تملأ بهو المكان بالسعادة وفجأة راحت تبحث داخل حقيبتها عن أوراق الدفاع وكانت القاعة تنصت لها في ذهول وتعجب وتساؤل :

العصفور الضعيف كيف استطاع أن يدفع عنقوداً من الذهب لهذه المحامية الجميلة كأتعاب معاناة عما ستقدمه لهيئة محكمة العاشقين من دفاع كي تستطيع أن تحرر ذلك العصفور .

وفجأة يتغير المشهد من انتظار لبراءة العصفور الصغير لفاجعة كبرى وهي لحظة كسوف الشمس التي حذر منها علماء الروح تلك اللحظة التي جعلت الجميع يولي الفرار .

وإذا بحاجب المحكمة يصـرخ ويقـــول :

قررت المحكمة تأجيل جلسة العصفور حتى تعانق الطبيعة قبلات الشمس للأرض وحتى تتجلى قمة المشاعر العالقة بين ثنايا الروح وحتى تفوح روائح العدل وحتى تقيض مبادئ الحق حينها سيحاكم العالم أجمع بغير عذر .

وإذا برجل طيب يأتي من بعيد وينظر لي مبتسماً سعيداً ويقول لي : لا تخافوا ولا تحزنوا فالصبح قريب والرب مجيب أليس هو القائل :

{ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}

هي آيات الله لكم تبشركم وتنذركم وكان يتحدث ببشاشة وجه تصاحبها السعادة كان مطمئن القلب يبدو أن الإيمان يتخلل قلبه ويداعب روحه ويخالط فكره وينير دربه ليس بينه وبين الضياء إلا قيد أنمله وسرعان ما يختفي ذلك الرجل الطيب ربما كان درويشاً يحث الناس على العدل أو ربما كنت أتخيل المشهد .

الحامية الجميلة

ومرت الأيام

وعادت الطيور المهاجرة في أسراب وتشكلت في السماء وتزينت وعانقت الشمس حقول وبساتين الوادي وخرجت زهرة تداعب الناظرين كأنها اللؤلؤ والمرجان يخشى أن ينظر لها أي جان أو يقطفها إنسان .

وفجأة تأتي فتاة جميلة وتستنشقها فيخرج منها عطر يعانق روح الفتاة فتسقط الفتاة مغشياً عليها ويسرع الحاضرون إليها فتستفيق وهي تتمتم بكلمات عن الحب وعن الروح وعن العشق .

يبدو أنها تكابد الليالي وتنتظر الساعات حتى يخرج الفجر ويعانق الصباح التي تنتظره هي فقط في مخيلتها يبدو أن لها حبيباً قد غادر منذ زمن بعيد كانت تستقصيه وتبصره عن جنب معتقدة أنه أتى مع الأسراب التي أتت وعادت إلى البلاد ، ولكن تلك الزهرة التي استنشقتها قد أخبرتها أنه لم يعد وحينها تمنت الفتاة أن لو تموت فسقطت مغشياً عليها .

وأنا كنت أتابع المشهد من بعيد وسريعاً أدركت أنها هي تلك الفتاة التي ابتسمت لي في رواق المحكمة من قبل أمر غريب كانت تدافع عن العصفور الأسير وهي مكبلة بقيود الحزن نعم هي محامية جميلة ولكن يسكن الحزن قلبها .

وإذا بهيئة محكمة العاشقين تنعقد بعد أن انكشفت غمة الفتور التي كانت بين الأرض وبين نور الشمس الساطع وسريعاً ما يدخل العصفور الأسير مكبل الجناحين في قفص صغير ويحيط به العديد من الجنود وكان أحدهم يقول :

لابد من كبح جماح ذلك الأسير الذي حلق في سماء الحرية كثيراً وملأ الأرض ضوضاء بحديثه عن الحرية وأنا أنظر لذلك الأسير الذي ذرفت دموعه وانشطر قلبه وتألمت جوارحه أنظر إليه ودموعي تسيل على خدي كبحر طويل كنيل أسير وفجأة يتحدث العصفور قائـــــــلاً :

يا سيدي الرئيس انظر لي وتأملني فكيف لي أن أتسبب في عراقيل وأنا شيء صغير كيف لمن عشق الحرية أن يكون أسيراً ؟ هل ظننتم أن ذلك القفص سيمحو ذاكرتي عن الحب عن العشق عن العدل عن الضياء فلا تظنوا ذلك بل بالعكس سأبدأ يومي وأحمل مصباحاً يشع منه النور سأنتظر الفجر حتى يظهر وسأبكي وأبتسم حتى تجري دموعي وتملأ ذلك النيل الأسير .

أنا ليس وحدي من يكره الظلم أنا ليس وحدي من تغلغل بالقيود أنا لا أموت في سجن سجان .

تلك العبارات التي ترددت في قاعة المحكمة كانت كلحن حزين يصعب عزفه من أفضل العازفين الباحثين عن الأمل الذي طال انتظاره من الجميع .

وإذا بنفس الرجل الطيب الذي ظهر سابقاً يظهر من جديد وينظر للعصفور ويقـــــــــــــول : لا تفقد الأمل أليس الله هو القائـــــــل :

{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) و إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)}

فيبتسم الأسير ويختفى ذلك الدرويش ثانية وبعد هذه الموعظة تأتي الأسراب التي عادت بعد هجر وتدخل القاعة مؤيدة ومساندة لفك الأسير من قيوده ، ورغم ذلك كان يتخلل جنبات المحكمة مؤيدون ومعارضون لهذه الفكرة وللأسف منهم من قـــــــال :

اتركوه فقد يقضي نحبه ومنهم من كان ينتظر أن يخرج الأسير ويرفع راية النصر وبعضهم كان لا يبالي وبعد ذلك تطلب المحامية الجميلة أن تتحدث فيسمح لها فتقـــــــــول :

إن رسالة معاناة العصفور قد وصلت إلى ذروتها وفاض بها الكيل فحق الأسير عليكم تحقيق العدل إنصافاً الحق فالحرية شيء جميل لا تسلبوه إياه امنحوه فرصة حتى يعانق الأمل فمن المحتمل أن يطير لكي لا يكون أسيراً .

فينظر لها القاضي مبتسماً ويقول لها :

منذ متى كان البحر أسيراً لساكنيه ويصدر حكماً مسبباً ويقضي ببراءة العصفور

ويذكر في حكمه أن العدل هو باكورة الحب وحقيقة الكون فلا نور بلا عدل ولا مطر بلا سحاب ولا محكمة بلا قاض وما قدمته المحامية من دفوع ودفاع يؤكد على أن الحق ماء يروي ظمأ الجميع والحرية طهارة من كل شر ورداء الهائمين في مملكة الضياء الواصلين بين بحور الحب والعشق والأمل ولذا فهذا العصفور من الصعب أن يكون رسولاً للحرية ويصبح سجيناً في قيود مكبلاً عبر حدود .

لذا قررت المحكمة إطلاق سراحه من ذلك القفص وكانت المحامية قد حصلت على صورة من الحكم وأخذت تقرأ هذه الكلمات المعبرة للحاضرين وكنت أسمع هذه الكلمات وقلبي ينفطر حزناً خاصة أنني من الأشخاص الذي حباهم الله معرفة القانون فلماذا لم أكن سبباً في فرحة الآخرين وجابراً لقلب كل حزين حينها قررت أن أكون محامياً .

قضية مكتبي الأولى

لم يكن ذلك القرار الذي اتخذته

هو محض صدفة ولكن كان نابعاً عن صدق سريرتي ويعكس مدى تعلقي الشديد بالحرية ومدى قدسيتي لهذه الفكرة .

ولذا وجهت قلبي صوب كتيبات القانون أبحث فيها وأتعلم منها ما جهلت لكن لم أكن أتخيل ذات يوم أن القانون بحر لا يمكن أن تصل إلى أعماقه بسهولة وأصبحت أتعجب وأمسيت أتندم على ما فات من وقت وإذا بأحد الكتب

يحتضنني ويتحدث معي قائلاً :

قبل أن ترتدي الرداء الأسود عليك بمعرفة أمر مهم فإن إجراءات البحث وليالي الفحص تحتاج إلى إنصات وكل معلومة ستتعلمها ستنير طريقك وترجح كفتك وتُعلي شأنك وتصقل موهبتك فإن كنت تحتاج إلى المعرفة فعليك بالفهم إن كل كتاب ستقرأه سيكون صديقاً لك حتى يقول لك هذا فراق بيني وبينك . إن لم تستطع معي صبراً فالصبر مصباح الطامحين جسر الراغبين في عبور طريق الجهل حيث الظلام ، الواصلين إلى أماكن العلم حيث الضياء وهنا

كنت أقف مندهشاً أمام هذا الكتاب وأقول ياليتني كنت كتاباً .

** وبينما كنت أحدث نفسي وألملم جرحي وأجلس متكئاً على أريكتي أقرأ كتابي إذا بسيدة ترتدي ملابس بالية ومعها من الأولاد ثمانية تدخل مكتبي وتصرخ في وجهي وتقول .. الحقني يابيه

يبدو أنها تحتاج إلى أمر في غاية الخطورة وإذا بي أنظر إلى حالته ويصيب الحزن قلبي فأسألها ماذا بك أيتها السيدة فأخذت تصرخ مرة أخرى في وجهي حتى أصابني الضجر وأخيراً تحدثت معي وقالت زوجي لم يقم بالإنفاق عليَّ من حين وأنا على باب المعين وشكوت سنين ومن ينصفني غير ربي من .

ورغم ذلك زوجي لم يتركني بل قام بشكايتي واتهمني بالسرقة

كانت تتحدث ويعتصرني الحزن وتراودني أسئلة عديدة ومنها كيف لهذا الرجل أن يترك أولاده .... وكيف له أن يتجرأ على شكاية زوجته وحينها ذرفت عيوني بالدمع حزناً على هذه السيدة ورحت أسألها وما الحيلة أو الطريقة التي يمكنني أن أساعدك من خلالها فنظرت لي متعجبة

وسألتني هو انت مش محامي !!!

فتذكرت سريعاً أنني قررت أن أكون محامياً واعتذرت لها وأجبتها نعم أنا محامٍ فلا تخافي ولا تحزني واتركي أوراق قضيتك .

** وبعد أن خرجت السيدة من مكتبي الصغير أصابني القلق الممزوج بالسعادة القلق لكوني أخشى أن تحبس هذه السيدة فيشرد أبناؤها والسعادة لكون هذه القضية هي القضية الأولى في مكتبي بعد ما تذكرت قضية العصفور الأسير الذي دفعني لكي أعمل بمهنة المحاماة إلا أن هذا الأمر دفعني لمزيد من الإصرار وقمت بجمع الكتب وإعداد النصوص والبحث عن الدليل وكتابة المذكرات اللازمة ولم استطع أن أنام منذ أتت هذه السيدة إلى مكتبي .

فكلما وضعت رأسي على الوسادة أتذكر السيدة وأتذكر أبناءها الصغار وأحدث نفسي قائلاً : ماذا لو لم أوفق في هذه القضية وسجنت هذه السيدة وما المصير الذي سيلقاه الأولاد العزل كل هذه التخوفات دفعتني إلى مزيد من الإصرار والبحث والتطلع حتى صرت أفكر في هذه القضية وأجول ببصري نحو النصوص والأسطر داخل الكتب القانونية حتى كنت أعتقد أنني أنا المتهم وأحتاج إلى الدفاع عن نفسي لا عن السيدة وأولادها وازداد الأمر سوءاً لدي عندما أتت السيدة مرة أخرى وأنا أتناول فنجان القهوة وحدثتني أن ابنها الصغير مريض ويحتاج إلى الرعاية فكن حذراً مع قضيتي أرجوك .

وفي اليوم المشهود انعقدت المحكمة ودخلت القاعة وأنا شخص غير معلوم لدي جموع الحاضرين فكلما نظرت إلى القاضي زادت نبضات قلبي حتى نادي الحاجب على قضية السيدة ومن شدة قلقي لم أستطع أن أقف فقال لها

القاضي هل لديك محامٍ فنظرت لي هذه السيدة ببؤس شديد معتقدة أنني قد تخليت عنها وفجأة تحركت من مكاني وكأن قوة خارقة من عند الله هي التي دفعتني وأخبرت القاضي أنني أحضر مع هذه السيدة فالتقطت السيدة أنفاسها فسمح لي القاضي أن أتحدث ورغم أن القاعة كانت ممتلئة في ذلك الحين إلا أنني لم أعد أشاهد أحداً ولم أتخيل إلا مشهد السيدة ومشهد دخولها إلى مكتبي ومن شدة تأثري بالقضية كنت أترافع وكأنني الوحيد في القاعة حتى أحسست بأن القاضي ذاته كان مندهشاً ولم أتذكر أي شيء من المرافعة إلا مقولة واحدة أخبرت بها القاضي ألا وهي (يا سيدي القاضي سمعت عن امرأة تسرق قلب زوجها ولكن لم أسمع عن امرأة تسرق نقود زوجها) وبعدها يطلب مني القاضي أن أنهى المرافعة

ويقول بناء عليه يا أستاذ

فطلبت منه براءة السيدة من التهمة المنسوبة إليها - فتنتهي المرافعة وينظر لي جموع الحاضرين متسائلين من ذلك المحامي الشاب الذي كان بارعاً في مرافعته وإذا باليوم يختتم بالفرحة المنتظرة ألا وهي براءة السيدة من التهمة المنسوبة إليها وإذا بالسيدة تبكي وتدعو لي دعاء يشفي الروح وإذا بي أشاركها البكاء حتى افترقنا .

خروج الفجر

يبدو أن نسمات النصر التي عانقت قلبي جعلته يرفرف حول المجد وكأن فجره الذي طال انتظاره قد حان فسرعان ما تغير المشهد من حروب وصراعات داخلية عاصرتني منذ أعوام وانتشال لجثث المحاربين بداخلي في أرض المعارك إلى سلام داخلي وصفاء نفسي وبحث عن مزيد من الحب لاحتضان الروح وإلهامها المزيد من الطموح حتى تفوح بين ثنايا قلبي نسمات العطاء .

الذي يحتاج إلى تصافح بين قلبي وبين وجدي وإنهاء لخصومات قد تلاحقت من أمد بعيد يبدو أنني كنت أحتاج إلى هذا النصر النفسي الذي عكس حبي للحرية وحبي للخروج من آثار الدمار التي سكنتني منذ وقت لم يكن بالقريب وحينها تنفست الصعداء بعد أن كان عمري أسيراً لفكرة التزاحم بين الأفكار التي لم أجنِ منها إلا التشتت ولم أجد بها إلا الفتور الروحي لم أكن أعرف أن كتاباً واحداً في القانون يستطيع أن يشفى كل آلامي وأوجاعي لم أكن أعلم أن مساعدة أحد الأشخاص حتى ينجو من قيود الظلم قد تتسبب في تحرير قلبي الأسير الذي طالما كان يشكو الوحدة وينبذ الفراق .

وفجأة تهب رياح محملة بالأتربة وتلطم خدي وأنا أنظر من شرفة المنزل وحينها كان يسقط المطر أيضاً ويلازم دمعي ويتجانس الدمع والمطر معاً وكأنهما قطرة واحدة تلك الدموع التي ذرفت من فوق أجفاني حزناً على ما فات من أيام وما مر من عمر وأنا مشتت بين الأفكار وحبيس لقيود العناد الخانقة

وبعيد عن مظلة القانون التي كانت سبباً في سعادتي لمجرد قراءتها وفي هذا الوقت يظهر لي من جديد الرجل الطيب ويبتسم ويقول أن تأتي متأخراً خير من أن تضل طريقك طول عمرك فخير الناس أنفعهم للناس يا ولدي لقد قال الله تعالي : { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} ثم يختفي ذلك الرجل الطيب وأنا أندهش وأبحث عنه وأصرخ متسائلاً أين أنت أيها الرجل الطيب أين أنت أيها الدرويش لماذا تختفي وتتركني كل مرة ثم أخذت ألتقط أنفاسي بعد ذلك وأخيراً تيقنت أنه قد يظهر لي كلما كنت أحتاج إلى أمر ما إذا علي الآن ترتيب أفكاري المبعثرة حتى أستطيع الصمود وفي ذلك الوقت كان قد تسرب إلى أبناء قريتي خبر نجاحي وصمودي في ساحات المحاكم وحبي للحرية وذاع صيتي بين الناس حتى لقبوني بفارس المحكمة وفي ليلة من الليالي أخذت أتجول في الحارات ولم أكن أعلم أن أبناء قريتي أصبحوا يكنون لي كل ها الاحترام والتقدير حتى استوقفني أحدهم متسائلاً :

هل تسمح لنا بمقابلتك في مكتبك الخاص وسرعان ما قمت بالرد :

أنا لي الشرف في ذلك ، مكتبي ما هو إلا مكان مخصص لخدمتكم جميعاً وكان يتصبب مني العرق من شدة الخجل وشدة الفرح وكانت تغمرني السعادة البالغة وحينها عدت إلى منزلي وأنا ممشوق الهامة مرفوع الرأس ووجهت قبلتي نحو مكتبي الصغير وقررت أن أقرأ وأنا متحمس جداً للقراءة

وأيقنت أن الأيام القادمة ستحتاج إلى مزيد من النصوص وكثير من الاطلاع فكنت بين الكتب أحمل مصباحاً وكأني أعبر طريقاً مظلماً وكنت آخذ معلومة من هذا الكتاب وأبحث عن أخرى في هذا المرجع

ولم يشغلني الضجيج الذي كان خارج المنزل ولم أعد مهتماً بتحضير الطعام وكان كل ما يشغلني هو طريقة الحصول على معلومة قانونية تساعدني في الوقوف بجانب المظلومين في ساحة محكمة العاشقين .

إلا أنه رغم ذلك الحب الذي قابلته من أهل بلدتي لم يكن الوضع على ما يرام بالنسبة لبعض الأشخاص الذين يرهقهم نجاحي ولكن لم أكن ألتفت إليهم كثيراً وقد كانت تراودني عبارة ومقولة في أحد الكتب للعقاد حينا قال :

(إذا أحبك الناس مخدوعين فلا تفرح وإذا كرهك الناس مخدوعين فلا تحزن بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات)

ودائماً كنت أتذكر قصة العصفور الأسير وكيف كان يحتاج إلى من يقف بجانبه وكان ينتابني الحزن على ما فاتني من قراءة كتب القانون والمعرفة بالنصوص وتركي للرداء الأسود والذي لم أكن أعلم بقيمة وشرف ارتدائه ومسئولية أن تتزين به فليس من السهل أن تكون محامياً وليس من السهل أن تكون حاملاً لرسالة العدل مؤمناً بأن القانون يحتاج إلى الصبر ويهدي إلى سبيل المعرفة فإذا أردت أن تكون محامياً فعليك أن تهيئ نفسك بتحمل الصعاب وعليك أن تعرف كل يوم معلومة جديدة كي تساعدك على العطاء في محكمة العاشقين .

مسئولة في قيوده

في ذات ليلة من الليالي بينما كان النوم يهزمني كانت تراودني قصة عنترة بن شداد وكنت أسأل نفسي : ماذا لو كنت مدافعاً عن عنترة بن شداد في قضية حبه لبنت عمه عبله وذلك رغبةً مني في التخفيف عن عنترة بن شداد لما لاقاه من ظلم وما جناه من قهر .

كونه لم يقم بشيء سوى أنه أراد أن يتزوج بنت عمه الجميلة عبله وتخيلت أن محكمة العاشقين قد انعقدت وأتوا بعنترة بن شداد مكبل الأيدي ولم يكن عنترة يخشى القيود ولكن كل ما كان يهمه هو أن يثبت لحبيبته عبله أنه على استعداد تام أن يقدم لها كل ما يستطيع من تضحيات نظير حبه لها .

كان عنترة مكبلاً بالسلاسل وكانت الابتسامة لا تفارق وجهه وكان في ذلك الوقت يتمتم ببعض الأبيات الشعرية لحبه في عبله وصبره على المحنة التي يمر بها فكان يقول :-

إذا كشف الزمانُ لك القناعا ومد إليك صرفُ الدهرِ باعاً

فلا تخشى المنية والقَيَـــنَّ ودافع ما استطعت لها دفاعاً

ولا تختر فراشاً من حرير ولا تبـك المنـــازل

البقـاعـــــــا

كانت هذه الأبيات التي ألقاها في قاعة المحكمة تسكن مسامع الحاضرين فتارة يلتمسون له العذر ، وتارة ينظرون إليه على أنه ألقى بنفسه إلى التهلكة وذلك

لكونه طموحاً أكثر من اللازم وهذا ما عرضه للخطر .

ثم بعد ذلك تعقد جلسة محاكمة عنترة بن شداد وسط زحام رهيب من الحاضرين وكنت أنا أجلس في قاعة المحاكمة وأنتظر المحامي الفذ الذي سيحضر مع المتهم المحب والشاعر البارع عنترة بن شداد .

عنترة لم يكن متهماً مثل باقي المتهمين وهذا ما جعلني أشتاق أكثر وأكثر لرؤية المحامي الفذ الذي سيحضر مع المتهم الفصيح عنترة بن شداد .

وكنت أسأل نفسي

إذا كان المتهم بهذه الفصاحة وهذه الدرجة اللغوية من البلاغة فما حال محاميه وإذ بحاجب المحكمة ينادي على قضية عنترة ويسأله القاضي ماذا فعلت ؟

فيجـــــيب :

وقد قلت إني سلوت عن الهوي

ومن كان مثلي لا يقول ويكذب

هجرتك فامضي حيث شئت وجربي

من الناس غيري فاللبيب يجرب

** ويطلب منه القاضي ألا يبتعد عن الموضوع ولا يحاول تضليل العدالة وكذا طلب منه أن يرد رداً قاطعاً فيما يخص الاتهام الموجه إليه من محكمة العاشقين وفيما يخص حبه لبنت عمه عبله .

ووجه لها القاضي سؤالاً عما إذا كان معه محامٍ يدافع عنه من عدمه ؟

فرد عنترة قائلاً : أما ما يخص الاتهام فإذا كان حبي لعبله جرم فأنا أفتخر أني متهم وفيما يخص الثانية أنا ليس معي محامٍ ويكفي فصاحة لساني وقلة حيلتي

وينظر إلى عنترة بن شداد دون الحاضرين بالقاعة ويبتسم لي وكنت حينها أشعر بالذهول فيسأله القاضي هل تريد أن يدافع عنك محامٍ من الحاضرين ؟ فيجيب: لا

فإذا بي أقوم من وسط الحاضرين وأطلب من القاضي الحضور معه فيسمح لي وحينها لم أكن على دراية بقضية عنترة فيما يخص نصوص الاتهام

أما فيما يتعلق بقضية حبه لبنت عمه فهذه القضية معروفة للقاصي والداني داخل البلدة فيأذن لي القاضي بالحديث ولم يعترض عنترة بن شداد على حضوري معه في ذلك الوقت بل أخذ ينظر إلي ويبتسم ويقول :-

دعني أجد إلى العلياء في الطلب
وأبلغ الغاية القصوى من الرتب
لعل عبلة تضحى وهي راضية

أحلام أثر رواية كنت قرأتها عن عنترة بن شداد ولكن تعلمت من هذا الحلم أن أقتنع بقضيتي أولاً حتى أستطيع أن أقنع القاضي .

أخي على الشاطئ البعيد

لم يكن بوسعي إلا أن أحتضن المطر الذي كان يسقط بقطرات تشبه الندى حينها كنت ألوذ بفكري مضرب القلب أبحث عن الدفء بعيداً عن صقيع الشتاء القارص وفجأة أتقابل مع المحامية الجميلة التي شاهدتها من قبل في رواق المحكمة فنظرت لي وابتسمت مما دفعني أن أتحدث معها وأطلب منها أن أشاركها الطريق فوافقت خاصةً بعد أن عرفت أنني زميل لها وكانت الأمطار قد خفت واشتد الصقيع حينها منحتها الجاكت الخاص بي بعد أن شاهدتها ترتعش من شدة البرد وأخبرتها أنني ممن حضروا لها قضية العصفور الأسير وكنت أراقب عن كثب كيف كانت تدافع عنه بكل بسالة وأن ما استوقفني هو سقوطها مغشياً عليها بعد استنشاق الوردة الجميلة .

وأكملت حديثي معها وطلبت منها معرفة حقيقة الحبيب الذي كانت تنتظره فنظرت إليه متعجبة وعيناها تتساءل كيف عرفت ذلك ؟

فأخبرتها أنني كنت أشاهد المشهد من بعيد وقد أخبرني الناس بتلك القصة فبكت فاعتذرت لها وأخبرتها أنني لم أكن أقصد إيذاءها أبداً بهذا الحديث فقالت لا عليك وقصت لي قصة الحبيب .

وقالت هو لم يكن حبيبي فقط بل كان بمثابة النور الذي يشع من مصباح الأمل وهو الشمس التي كانت تضيء الكون كل صباح ليس ذلك بل هو كان ينبوع السعادة كان سحابة الصيف التي كانت تحميني من أشعة الشمس الحارقة هو كان نسمات الربيع بل هو كان يمتلكني أنا حتى أصبحت أنـا هــو وهـــــو أنـــا ...

وراحت تزرف الدموع حتى لم أعد أمتلك نفسي أمامها وجرى دمعي وتشاركنا البكاء وابتسمنا معاً وجفف كلاً منا دموعه وكان مشهداً رائعاً حتى لم يستطع أحد أن يفرق بين دموعنا وتساقط المطر وهذا ما دفعني أن أشاركها البكاء ثم سألتها لماذا ابتعد عنك ذلك الحبيب ؟ ولماذا لم يشاركك الحياة ؟

فابتسمت وقالت : هو لم يكن حبيب كما تعتقد أنت

بل هو كان أخي وفرقتنا أمواج البحر فقد مات أبي وأمي منذ الصغر وتركا لي أخي فقمت بتربيته حتى صار لي ابناً وصديقاً وحبيباً .

ولما كبر قرر ذات يوم أن يسافر وأخبرني أنني لقيت من أجله المصاعب كثيراً وجاء اليوم لكي يرد لي الجميل ويشاركني العناء ويقاسمني الألم وكان يحلم بغد مشرق وأن يصنع مجداً ويعود لي مجدداً بعد أن يذيع صيته بين أبابيل من الناس ورغم رفضي الشديد إلا أنه قرر السفر وفي الليلة التي لا تنسى قرر السفر على ظهر السفينة فعادت السفينة حطاما وانقطعت أخباره ولم أعرف إذا كان غادر الحياة أو التهمه الحوت أو نجا مع الناجين أو غرق مع الباقين حتى إن كل الجثث التي ظهرت فوق موج البحر لم يكن هو بها فصرت أعد الليالي ومن حين إلى آخر أتذكر موعد سفره وآتي إلى الشاطئ الذي فرق بيننا وأحمل وردة كان قد أهداني إياها قبل السفر حتى تكون ذكرى فكلما شاهدت الشاطئ تذكرته وكلما استنشقت الوردة فارقته ....

وأتلذذ بالفهم حتى غالبني النوم .

لطيفة الطيبة

بعد هذه الليلة التي فارقت فيها روحي روح تلك الفتاة وجعلتني ألوح بفكري في طيات الأمل على الرغم من أنه هذه الفترة كان الحزن قد جفاني قليلاً إلا أنه هذه الليلة كانت كسابقتها من الليالي المعتادة لي بعد كل لحظة جميلة أمر بها لابد وأن تكون عواقب الفرح وخيمة فمنذ أن تركت هذه الفتاة الجميلة بذات الليل الممطرة أصابني التعب الشديد من آثار المطر مع وجود الصقيع الذي كان يزين المشهد حتى لازمت الفراش وكثيراً ما كانت الآلام تنتابني وكثيراً ما كنت أعاني من آثار الإعياء الشديد ولم أعد أتحمل هذا التعب حتى أخبر أحد الكتب الصديقة في مكتبتي أحد الأطباء وطلب منه الحضور فجاء الطبيب مسرعاً من هول ما أخبره به هذا الكتاب وإذا بالطبيب يدخل حجرة مكتبي ويرفع الغطاء عن وجهي ويندهش من احمرار وجهي ويجدني أرتعش من شدة البرد فيقوم بقياس درجة حرارتي ويسأل الكتب المرصوصة في المكتبة منذ متى وهو يعاني من الألم والمرض فحرارته مرتفعة جداً من آثار الحمى ويسألني لماذا لم تذهب إلى المستشفى .

وأخذ يعاتب الكتب الموجودة في المكتبة وحملهم المسئولية لتأخرهم عن إنقاذي ثم اصطحبني الطبيب إلى المستشفى بسيارته الخاصة حقاً هو طبيب مخلص في عمله رفض تركي في هذه الحالة رغم أنه لم يكن صديق لي من قبل ولم يكن لي به معرفة .

ولكن يبدو أن هذا الطبيب صديق لأحد الكتب الموجودة في مكتبتي لكنه طبيب

مخلص للغاية رغم أن الطريق بين المستشفى وبين مكتبي بعيد إلا أنه أصر أن يصطحبني وحاول إنقاذي وكان يحاول أن يتحدث معي حتى يساعدني في الخروج من محنتي خاصةً أني أصبحت أرتعش أكثر فأكثر منذ أن نزعت الغطاء من وجهي واستقللت معه السيارة ثم وصلنا إلى المستشفى وعلى الفور وفر لي مكاناً لإسعافي وطلب من الممرضين إحضار مخفضات الحرارة سريعاً ووضع لي المحاليل اللازمة ثم منحني قرص منوم ومسكنات حتى لا يرهقني الألم بعد أن أخبرته أنني لم أنم منذ يومين وبعد ذلك غرقت في نومي فترة كبيرة ثم استيقظت فوجدت ذات الطبيب يمر على المرضى فقال لي : حمداً لله على سلامتك فشكرته وقد كانت حالتي الصحية قد تحسنت إلى درجة كبيرة وانخفضت درجة حرارتي فعبرت لذلك الطبيب المخلص عن امتناني وعجزي عن الشكر لما قام به من أجلي .

وإذا به يحدثني مبتسماً ويقول : لا تشكرني بل اشكر الكتاب الذي أخبرني بحالتك وضحك كثيراً فظننت أنه يمزح وتبسمت وأنا كنت أعاني من الكلام سألته ما قصة هذا الكتاب ؟

فأخبرني : إن ارتفاع درجة حرارتك بالأمس جعلك تصاب بنوع ما بالهواجس وهذا ما جعلني أصحبك مسرعاً إلى المستشفى وأخبرني أنني كنت أتحدث وأقول أيها الكتاب شكراً لك لأنك أخبرت الطبيب عن حالتي فضحكت قلت له إذن كيف لك أيها الطبيب المخلص علمت بحالتي .

مرض الإيدز

وبعد أن منحني الله العافية والقدرة الكافية خرجت من المستشفى وقد تبقى معي من النقود ألفان وثمانية جنيهات وكانت ملابسي حينها أصبحت بالية فقررت أن أشتري ملابس جديدة وبينما أمر في الطريق إذا بي أجد رجلاً فقيراً فاقتربت منه ومنحته قدراً كافياً من النقود وطلبت منه أن يدعو لي كثيراً فلقد كنت أعاني من المرض فإذا به يقول لي لا تقلق ستشفى أسرع مما تتخيل فابتسمت له وتركته متجهاً إلى مكتبي ولم أعد أفكر بشيء إلا بالعمل وكيف أستطيع أن أبلغ المجد وكيف أستطيع الخروج من غياهب الألم إلى بحور الأمل وكنت أسأل نفسي ماذا لو كنت فارقت الحياة بعد ذلك المرض الشديد .

دون أن أترك للناس السيرة الطيبة والسمعة الحسنة حتى يقال عني مات وترك سيرة عطرة وحينها علمت أنه لا يكفي العزم ولا تكفى الطموحات ولا تكفي طيبة القلب ؛ ولكن لابد أن تؤمن القلوب أن الله سيمنح من تمسك بالحلم واجتهد حلاوة النجاح .

إذاً كان مرضي هو بمثابة المصباح الذي أضاء من حولي طريق الظلام وهذه المحنه قد جعلتني أفكر في أمور كثيرة ومنها الحب .

الحب الذي هاجر قلبي منذ أعوام كثيرة وجافي روحي .

الحب الذي كنت وما زلت أبحث عنه وأرسمه في خيالي أنا فقط كمصباح أضاء ظلمة الليل كسحابة صيف أمطرت فوق بستان من الورد قطرات من الندى ،

كشاب عاشق للزهور أشتم رائحة أحدهم وقطفها فانتشر الخير .

الحب الذي أحلم به هو أن يحدث قلبي قلب أحدهم وتعانق روحي روح أحدهم وتبتسم عيني لرؤية أحدهم حتى يقول أحدهم لي يا أنا حينها سينتصر قلبي على بعض الصراعات التي خُضتها من أجل الوصول إلى الصفاء .

فقد كنت يعقوب في حبي و أيوب في صبري ويوسف في جمال قدري .

القدر الذي كنت وما زلت أنتظره أن يخرج مع الفجر ويهديني تميمة الحياة ونصلي معاً فرحين بما آتانا ربنا من نجاحات ونردد خلف المؤذن : حي على الفلاح حي على النجاح فالحب هو النجاح .

والنجاح هو الفلاح والفلاح هو التمسك بالقلوب والقلوب هي حلقة الوصل والوصل هو أن نجد من نحب ونترك كل شيء لأجله .

** كل هذه الكلمات الصادقة النابعة من نبضات قلبي كانت تراودني كثيراً وفي تلك اللحظة مرت سريعاً في مخيلتي الفتاة الجميلة المحامية الأنيقة التي قابلتها وكنت أسعد بلقائها وتذكرت كل ما قامت به من أجلي وكيف كانت حزينة جداً لمرضي وكيف ساعدتني في الانتقال إلى المستشفى يبدو أنني تأثرت بها كثيراً وأصبح قلبي يدق كلما تذكرت تلك الفتاة إذا قد تكون هي التي أبحث عنها ولكن كل ما أخشاه ألا تبادلني نفس المشاعر الصادقة أخشى أن يكون حباً من طرف واحد خاصةً أن المحامي والمحامية لديهما أمانة كبيرة تمنعهما من التفكير في أنفسهما ومسئولية ثقيلة تحجب عنهما الحب ألا وهي مصالح الآخرين .

{ يبدو أنني انتقلت من مرض الجسد إلى مرض الهوى }

بعـد التحيـة والسـلام أود أن أخـبرك بـأن ما يشـغلك

هــو أمــر في غايــة الخطــورة وغايــة النبــل وقمــة المــروءة

فالخطـورة تكمـن في حرصـك عـلى كرامتـك والنبـل يكمـن في

روعـة اختيـارك والمـروءة تكمـن في طيبـة قلبـك فـلا تلتفـت إلى

[redacted]

لم يـرد لم يكـن فـكل الأمـور بيـد اللـه وحـده هـو الـذي يعلمهـا .

مرسل من ضميرك الذي هجرته طويلاً

بينما كنت أجلس على أريكتي وأتناول فنجاناً من القهوة

وأرتعش من شدة الخوف من القرار المصيري الذي أنتوي اتخاذه إذ بباب منزلي يطرق من قبل ساعي البريد ويسلمني خطاباً مرسلاً من ضميري يقول فيها صديقي العزيز :

ازداد الأمر سوءاً بالنسبة لي بعد أن قرأت هذا الخطاب الذي يعني أنني لم أعد أفكر في أي شيء بضمير مسبق حتى صار ضميري يرسل خطابات عبر مكاتب البريد لكي تصل إليّ فربما أنا مقصر في حق ضميري وذلك التقصير لا يعني بالضرورة أنني أقصد ذلك ولكن بعض الأمور والمواقف التي قد يمر بها الشخص

تجعله يجهل الكثير من الحقائق ويخشي الكثير من الغيبيات فالإنسان دائماً وأبداً عدو لما يجهل ولذلك قررت أن أعتذر لضميري وأرسلت له خطاباً بذلك .

وانتهيت من تناول فنجان القهوة الخاص بي وعزمت أن أصارح الفتاة الجميلة والمحامية الأنيقة بما يدور بداخلي من مشاعر وكنت أنتظر أن يهل الصباح حتى أستطيع الذهاب إلى ساحة المحكمة غرا ومقابلتها وكانت نبضات قلبي تزداد كلما راودتني الفكرة وكنت أحدث نفسي قائلاً ما هذا القلق المبالغ فيه ؟ ماذا سيحدث إذا عبرت لها عن مشاعري ؟

إذا الأمر بسيط للغاية ولكن فقط أنا مضرب وقلق ثم أشرقت الشمس وطرقت نافذة مكتبي فخرجت موليا وجهي شطر المحكمة ومر الوقت وانتهيت من أداء عملي وكنت أنتظر ظهور المحامية الجميلة وأبحث عنها داخل رواق المحكمة بشكل ملحوظ ملفت للنظر حتى سألني أحد حراس المحكمة قائلاً :

عم تبحث يا سيدي ؟

فأجبته : لا عليك أنا أنتظر صديقاً لي ولكن يبدو أنه لم يأتِ اليوم فشكرته لاهتمامه وأكملت حديثي معه واكتشفت أن والده قد توفى منذ يومين وهو حزين للغاية وقد عاد إلى عمله بعد تأبين والده ورغم ذلك يؤدي عمله بكل إتقان حقاً هو جندي مخلص للغاية .

** وفجأة ظهرت المحامية الجميلة في بهو المحكمة فنظرت لها مندهشاً وكأنني أشاهدها لأول مرة في حياتي حينها كان لدىَّ إحساس بجمال كل شيء من حولي فرداؤه الأسود كان جميلا وكانت حقيبتها جميلة وكانت ابتسامتها جميلة فحدثتها قائلاً :

صباح الخير على من ملأت المحكمة إشراقاً صباح الخير على من تجملت الأشياء من أجلها فردت قائلة : صباح العدل على محامي العاشقين

وأكملت حديثها قائلة حمداً لله على سلامتك لقد مررت بوعكة صحية شديدة لولا ستر الله لكنت أصبت بمكروه فشكرتها على ما قامت به من أجلي وسألتها أين ستولين وجهك الآن ؟ فأجابت : قبل المنزل وذلك لأنني انتهيت من عملي فتمنيت لها التوفيق وأخبرتها أنني أريد أن أتحدث معها بعض الوقت فأجابت بصوت هادئ وهي مبتسمة ليس لدىَّ مانع ولكن ما الأمر الذي تود أن تخبرني به .

** وبمجرد أن انتهت من توجيه هذا السؤال ازدادت نبضات قبلي واحمر وجهي وطلبت منها الذهاب إلى أحد المطاعم القريبة من المحكمة حتى نستطيع أن نستكمل الحديث فلم تمانع وذهبنا إلى أحد المطاعم القريبة من المحكمة وجلسنا في المطعم ولم تنتظر الطعام ولكن ألحت أن تعرف ما الأمر الذي أود أن أخبرها به .

فأجبتها أنني منذ أن قابلتك وأنا مسرور جداً وشعرت أني قد وجدت ضالتي بك فأنا كلما رأيتك صرت مسروراً لدرجة كبيرة بل وتعلقت بك ولا أعرف ما سبب

وبعد تلك الليلة الحزينة التي لم تكن في الحسبان قررت الرحيل عبر مياه النيل ؛ النيل الذي يعرفني جيداً ويشبهني في كل شيء حتى في اضطراب مشاعري فإذا بي ألجأ إلى إحدى السفن وأحمل حقائبي دون أن أعلم إلى أين أنا ذاهب ولكن كان قلبي ذاهب في الحزن ولم يكن يعينني شيء إلا الابتعاد عن الوادي الذي أحببت فيه وفارقت فيه .

لم يكن يعينني إلا النسيان ثم حطت بنا السفينة على شواطئ أسوان فحملت حقائبي وغادرت السفينة بعد أن وصلنا إلى شاطئ النوبة ورحب بي أهل النوبة واستقبلوني بحفاوة كبيرة بعد أن عرفوا أنني ضيف حطت به السفينة عبر شواطئهم وأعدوا لي الطعام وكذا المسكن وطلبوا منى أن آخذ قسطاً من الراحة لما لاقيته من كبد السفر حقاً هم أناس طيبون للغاية فغادرت جلستهم وانتقلت إلى حجرتي التي منحوني إياها وغرقت في سباتي وبعد أن استيقظت ارتديت ملابسي وخرجت لمقابلة أهل البلدة وبينما كنت أتجول داخل رواق البلدة استوقفني جمع غفير من أهل البلدة وكان يجلس أحدهم ويلقي أبياتاً من الشعر وكان معظم الحاضرين يستمعون له بكل إنصات فأيقنت أنه شاعر البلدة فاقتربت منهم كي أشاركهم هذه الجلسة الشعرية وكان يردد هذا الشاعر ويقول

بكار الأسمر أبو عيون سود

اللـــــي البشـــــــــر نســـــــــــيوه

رغـــــــم البعـــــــــــاد هيعـــــــــود

علشان في ناس حبوه

حبـــــــــــوه عشـــــــــــان طبعـــــــه

حبـــوه عشـــــان إنســـــان

بلمســـــــــــه مـــــــن صابـــــــــــعه

قلبـــك يجيلـــــــه أمـــــــان

فـــــــي نظـــــــــــرة عيـــــــــــــــونه

تحـــــــس فيهـــــــا كـــــــلام

وســـــــــط الجفـــــــون مكتـــــــــوب

يـــاد تفوق مـــن الأوهام

بكـــــــــــار ده كـــــــــــــــان ورده

يعشـــــقها ضـــي العـــــين

لـــــــــــو فينـــــــــــــا مزروعـــــــــة

تبقـــــى حياتنـــــــا زيـــــــن

بكـــــــــــــار دا أصـــــــل الحـــــب

أصـل الحـب اللـي راح

دلوقتـــــــــــي أصـــــــل الحـــــــب

قلب مليـــــــان جـــــــراح

بكـــــــــــــار دا كـــــــان الحـــــــب

بكـــــــــــــار دا أســـــــطورة

محفـــــــــــــــورة جـــــــوا القلـــــب

لكـــــــن يا ناس صـــــورة

يا شمـــــــــــــــس يا طالعـــــــــــــــة

فوتـــــــــي علـــى ضلـــى

الحـــــــــــب منـــــــي اتســـــــــــرق

إيـــــــه اللـــــي فاضلـــــــي

غـــــــير الألـــــــــــم والتعـــــــــــب

وحرقـــــــــــة الأيـــــــــــام

حتـــــــــى كنـــــــوز الـــــــدهب

صبحت ياناس أحـــــلام

يا مركبـــــــــــة ســـــــــــــــيري

قلبـــــــــي مهـوش شـــطك

هـــــو مفيـــــــش غـــــــــــيري

قلبـــــــــي طلـــــــب ردك

قلبـــــــــــي عايـــــز يرتـــــاح

قلبـــــــــــي بيتـــألـــــــــــــم

والله يا بشـــــــــــــر ســــــــفاح

والعيشـــــــــــــة بتعـلـــــــــــــم

انـــــــزل يا دمـــع العـــــــــين

انـــــــــــزل وشـــــــــوف الأرض

والحـــــب بيـن حبيبين لازم له

بنـــــــــــــــــــــــك وقـــــــــــــــــــــــرض

دا الحـــــــــــب والله غـــــــــــــريب

فـــــي زماننـــــــــــــا يا بكـــــــــــار

عايـــــــــز جروحنـــــــا تطـــــــيب

اســـــــــتغفر الغفـــــــــــــــــــار

بكـــــــــار بيســـــــــــأل عمـــــــــــه

عـــــن الزمـــــن العجـــــــيب

قـــــــــم عمـــــــــــه زود همـــــــــــه

وقـــالـــــــوا كـــــلام غـــــريب

مـــــــــا تزعـــــــل يـــــا بكـــــــــار

بكـــــره النـــــــاس تفـــــــــوق

وتعـــــــــرف أن الخـــــــــــــــــير

طريـــــق مليـــــان شـــــــقوق

والحـــــــــــــــب هيرجـــــــــــــع

الشـــــــــــــر مـــــــا بيـــــــــدوم

بـــــس انت قـــــوم وافـــــــرح

واصحى بقى من النـــوم

دا أنا شوفت الدنيا في عينك

زي ما تكون طير حمام

واقـــف تملـي بـين أيديـــك

ديمـــــــــــا يـــــرد الســـــــــلام

كلامـــــــــك ده يـــاعمـــــــــي

زرع فـي قلبـــــي الأمـــــل

مســـــــح كمـــــان همـــــــــي

ثبتنـــــــــي ذي الجبـــــــــــل

نـــــــور ظـــــلام الليـــــــــل

والصبـــــح عـــــاد تانـــــي

خلانـــــي أقـــــول مواويـــل

نســـــــــــــاني أحزانـــــــــــي

بكـــــار اللـــــــي اتنســـــى

مســـــــــــــيره هـيرجـــــــــع

بعـــــــد الألـــــــم والأســـى

فـــــي الصبح هيطلـــــع

بكـــــار دا كـــــان فكـــــره

مقصـود بيهـــــا الحـــــب

فالحـــق وخـــــد ذكـــــــــرى

دا الحـب نبـــض القلـب

وانتهى هذا الشاعر البارع من إلقاء قصيدته وأنا كنت مندهشاً ومتأثراً من هذه الكلمات وكنت أشعر أن هذا الشاعر يقصدني أنا تحديداً وإذا بي لم أستطع أن أتماسك وتزرف دموعي تأثراً بهذه القصيدة الجميلة التي عبرت عن مشاعري حتى لوحظ للحاضرين وسألوني عن سبب البكاء فقلت لهم إنني قد تأثرت بهذه الكلمات الطبية وأن هذا الشاعر البارع قد أصاب سهم نظمه قلبي فشكرني على هذه الكلمات الجميلة ثم اعتذرت للحاضرين وتوجهت صوب حجرتي وعدت وأنا متأجج بالمشاعر الحزينة بعد سماع هذه القصيدة التي عبرت عما يدور

بداخلي ثم جلست أمام حجرتي التي تطل على مياه النيل ما أجمل تلك المناظر الطبيعية الخلابة التي حبا الله بها بلاد النوبة ثم تعمقت في التفكير وتذكرت مهنتي وتذكرت كل القضايا التي تناولتها بدفاعي في ساحة المحاكم وكان ضميري يؤنبني كثيراً بسبب هروبي إلى بلاد النوبة وتركي لمكتبي وكنت أحدث نفسي قائلاً :

ماذا لو اعتبرت أن الفتاة الجميلة التي أحببتها والتي رفضت مبادلتي نفس المشاعر

ماذا لو اعتبرتها قضية لم يحالفني بها الحظ فلا يعقل أن يهرب المحامي بعد خسارة كل قضية لأن المحامي أكثر الأشخاص علماً بأن لكل قضية درجات تقاضٍ أخرى وكنت أحدث نفسي قائلاً :

إن المحامي ليس عليه تحقيق نتيجة ولكن فقط عليها الاجتهاد وبعدها أحسست بالذنب لقرار رحيلي المفاجئ والذي كان وليد لحظة انفعال وتأثر فقررت العودة باكراً إلى مكتبي واعتبرت أن رحلتي إلى بلاد النوبة كانت بمثابة عزلة وصفاء نفسي فقمت من أمام حجرتي متجهاً صوب فراشي وغرقت في سباتي واستيقظت باكراً وأخبرت أهل البلدة أنني اتخذت قرار العودة وشكرتهم جميعاً وصعدت إلى ظهر إحدى السفن السياحية وتحركت بنا .

وكنت أنظر إلى أهل البلـــدة وأقول هل سأعود مرة أخرى إلى هنـــــــــا ؟!

المعـــــودة

عدت إلى بلدتي ومكتبتي بعد أن كنت متسرعا في قرار رحيلي لذا لم تدم رحلتي طويلا بل استمرت فقط إلى بضعه أيام و بعدها قررت العودة إلى الوادي و إلى مكتبتي وأخذت انظر إلى القضايا معاتباً نفسي وأعتذر للقضايا تارة و أحمد الله تارة أخرى على أن الأيام التي رحلت فيها لم يكن بها قضايا مهمة لذا قررت غلق صفحة الماضي و اعتبرت أن رحلة الذهاب إلى بلاد النوبة كانت بمثابة رحلة لصفاء النفس .

فجلست على مكتبتي ونظمت الملفات الخاصة بالقضايا وتناولت كوباً من الشاي ووضعت الملفات في حقيبتي لكي أكون مستعداً باكرا للذهاب إلى المحكمة و أغلقت النوافذ و أطفأت الأنوار واتجهت صوب فراشي وقمت بضبط المذياع الخاص بي على إذاعة القرآن الكريم وغرقت في سباتي واستيقظت على حديث مقدم برامج الإذاعة وهو يقول إذاعة القرآن الكريم من القاهرة كنتم على موعد مع صوت القارئ الشيخ / عبد الباسط عبد الصمد رحمه الله - الساعة الآن السابعة .

فاستيقظت على هذا الصوت الجميل و قمت لكي أستعد للذهاب إلى المحكمة ووجهت وجهي شطرها .

و بينما أنا أمر في الطريق استوقفني المطعم القريب من المحكمة الذي تقابلت فيه مع الفتاة و التي تركتني فيه دون عذر مقبول و كان المطعم مغلقاً فتجددت آلامي برؤية هذا المطعم و كنت أسأل نفسي قائلا مجرد رؤية هذا المطعم

تجددت الآلام فماذا لو رأيتها هي ؟!!

ثم أكملت طريقي حتى وصلت إلى المحكمة وأخذت أنظر إليها وأعتذر لنفسي أولا على قراري الذي تسرعت فيه دون دراسة و شعرت بالذنب تجاه قراري

لأن المحامي لا يقبل أن يهرب من ساحه عمله بقرارات وعواطف و لا يعلق عمله على عواطفه و لا يكون معتلا عاطفيا ليصبح مختلا و غير متوازن ومنعدم الثقة بالنفس .

إذ هي كانت تجربة رغم قسوتها إلا أنها أظهرت معدني النفيس تجاه نفسي المتمثل في حرصي الشديد على عملي وحبي له وكذا حرصي على كرامتي وفجأة ألمح من بعيد حرس المحكمة يصطحبون رجلاً وكان مكبل اليدين وكنت أنظر إليه كأنني كنت أعرفه من قبل .

ولم أستغرق وقتاً طويلاً حتى تذكرته إذاً هو ذلك الدرويش الذي يظهر لي كلما كنت أحتاج إليه .

فاقتربت منه و سألته ما الجرم الذي اقترفته حتى ألقي القبض عليك ؟

فابتسم لي قائلا :

لا عليك : فلكل شيء سبب و لكل ضيق سبب ولكل حزن سبب و لكل سبب سبب و لكن قد يحدث الله بعد ذلك أمرا .

ثم اختفى الدرويش و كذا اختفى الحراس ككل مرة فيها كان يظهر لي و يختفي ولكن هذه المرة كنت أعتقد أنه ظهر لي حقيقة فأيقنت حينها أنه أراد أن يحملني رسالة ألا وهي أن لكل شيء سبباً و أن الإنسان يعيش بقدر ليلقى قدر وكل الأقدار بيد الله .

وأخذت أردد بعض الكلمات وأنا أتجول داخل رواق المحكمة وكنت أقول إذن لكل شيء سبب ولكل ضيق سبب ولكل فراق سبب

حتى لوحظ لأحد الزملاء المقربين منى هذا الأمر وطلب منى أن أعود إلي منزلي وذلك حتى لا يظن البعض بي أنني جننت وصرخ في وجهي قائلاً ماذا تفعل هل يعقل أن تصل إلى هذه المرحلة ؟ هل أنت ضعيف إلى هذه الدرجة؟ وظل يصرخ في وجهي وكنت متأثراً بحديثه وبكل الأسئلة التي طرحت منه وكنت أستمع إليه بكل إنصات حتى لاحظ أنني متأثر للغاية فراح يحدثني بطريقة أقل حدة وأخبرني وهو يقول :

يا صديقي لا تحزن ولا تجزع ولا تقلق فبعض الأمور تحتاج إلى الصبر والصبر ذاته يحتاج إلى العزم والعزم ذاته يحتاج إلى اليقين فلا تكن بلا يقين حتى تكون صبوراً .

يا صديقي الأمور لا تدرك هكذا ولا تنبذ هكذا عليك فقط بالتفكير والتروي والتوكل في كل شيء قبل اتخاذ القرارات فلا تنظر إلى الأشياء بنهايتها فحسب أياً كانت تلك النهاية بل انظر إلى بدايتها ستراها كانت جميلة إذن كل الأشياء جميلة

ولكن لابد من وجود بعض الصعوبات التي قد تجعلها أكثر جمالاً في نهايتها فلا تجزع واصبر واحتسب فأنت لم تكن أول المفارقين ولا آخر المصابين بالحزن .

ولكن يا صديقي في الحقيقة أنت قد أصبت بسهم الحب

الحب الذي كنت تحلم به لم يكن صعباً كما ظننت بل كان سهلاً للغاية إذ لم تستشعر الحرج تجاه روحك وتصارحها وتبادلها الأحاسيس قبل أن تنخرط في علاقة ما .

هل سألت نفسك ماذا لو لم تكن هي ؟

بمعنى هل ستبادل غيرها نفس المشاعر الصادقة أم ستنتهي قصتك عند هذه الحبيبة التي لم تبد عذراً مقبولاً أو رفضاً مسبباً لرحيلها ثم انتهى صديقي من حديثه معي بعد أن وضع يده على كتفي وطلب مني أن أبادر بانتهاء عملي .

فذهبت إلى بعض الأماكن داخل رواق المحكمة ولكن كنت أفكر في حديثه وكان يعتليني الحزن فقررت تأجيل كل أعمالي إلى يوم آخر تكون روحي فيه قد تصالحت مع قلبي واستأذنت عقلي قبل اتخاذ مثل هذه القرارات المصيرية وكل ما كان يهمني في تلك اللحظة هو الخروج من غياهب الحزن إلى أعلى مراتب الفرح وغلق صفحة الماضي بما كانت تحويه من أحزان وفراق وعدم استقرار نفسي وعدم استقرار مادي .

ومع كل هذه الأفكار المتضاربة بداخل صدري الضيق وأنفاسي المكتومة وقلة حيلتي تجاه نفسي قررت الاستفاقة والإفاقة وغلق صفحة الحب والتفكير في

العمل وبينما كنت أمر داخل رواق المحكمة إذا بي ألتفت خلفي فجأة فوجدت الفتاة الجميلة أمامي !!!

ومن جديد تقابلنا أنا وهو وكل منا يصحبه الألم وتستجليه الذكريات وتقص روايته الدموع لتحكي مرارة ما مررنا به أنا وهو في قضية الحزن على شاطئ الأمل وترسم أحلامنا على أمواج البحر لتعصف بها الأمواج وتحملها إلى شاطئ الفلسفة ليقابلها سقراط ويتناقش معها بنظرية أن الفضيلة هي المعرفة حيث إن معرفة الإنسان بنفسه وبما ينفعها سيقوده إلى التصرف وفقاً لذلك وما يصدر من الناس من شر إنما هو نتيجة لجهلهم بأنفسهم وبما ينفعهم وأكمل حديثه سقراط وقال أنا لا أعرف سوى شيء واحد :

هو أنني لا أعرف شيئاً .

** وفجأة استفقت من هذه الأفكار والمحادثات التي دارت في خيالي بين عقلي الباطن وبين سقراط الحكيم لكي أتفاجأ بظهور الفتاة الجميلة في بهو المحكمة والتي رفضت أن تبادلني نفس المشاعر من قبل .

فنظرت لي بحسرة وأذرفت دموعها على وجنتيها فحدثتها وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة ووجهت لها سؤالاً وأنا مندهش لماذا تبكين؟!

يا من تركتني في المطعم دون عذر مقبول ودون سبب مقنع وهل أنا غير مرحب به لهذه الدرجة ؟ فاستمرت في البكاء فحاولت الذهاب بعيداً عنها فطلبت منى أن أتوقف وصرخت في وجهي قائلة ::

« أنت لا تعرف شيئاً عن الحب ولا تعرف شيئاً عن العشق ولا تعرف شيئاً عن أي شيئاً أنت كما سقراط لا تعرف شيئاً إلا عن نظرية الشك .

لماذا أصدرت حكماً غير مسبب لكوني تركت دون عذر من وجهة نظرك ؟

الآن اتركني كي أستأنف حكمك وأبرر لك سبب تركي لك في المطعم دون الرد

لقد كان خجلاً وارتبك لما قالته

- لماذا لم تحاول أن تبحث عني ؟

وتسمع منى وتنصت لي لماذا قررت الرحيل عن بلادي التي أحببتك بها وقابلتك فيها .

فمجرد أن ذكرت كلمت أحببتك بها توقف قلبي عن النبض ثم عاد لينبض بشكل سريع للغاية وتصبب منى العرق وسقطت حقيبتي على الأرض

ثم طلبت منها أن تعاود الكلمات مرة أخرى فقالت نعم التي أحببتك بها بل سأزيدك من الشعر بيتاً أنا كنت كل يوم أنتظر أن تأتي الفرصة حتى أخبرك بأنني منذ أن قابلتك وأنا أصبحت أتخبط في كل شيء كما الذي يتخبطه الشيطان من المس لقد أصاب سهم حبك قلبي فأرداني وارتكز .

** وكنت أنظر إليها متعجباً فأكملت حديثها وهي تقول :

لقد كانت كلماتك التي عبرت بها بصدق عما بداخلك بمثابة إناء به ماء روى ظمأي بعد أن أثارتني صحراء الأوجاع واعتصرني الألم ومزقتني مرارة البعد وكبلتني قيود الانتظار على شواطئ الأمل وأنا أنتظر أن يعود أخي الذي قرر الرحيل بمفرده دون أن يأذن قلبي له .

ثم بكت وعادت لتعاود الحديث وتقول :

قرار تركي لك في المطعم كان وليد الخوف الشديد نتيجة آثار الحروب والصراعات التي عانيت منها ومررت بها كنت أخشى أن أخبرك بأنني أحبك فتفعل الأيام فعلتها وتفرق بيننا كما فرقت بيني وبين أخي أمواج البحر فأنا لا أخفيك ما بداخلي لقد وجدت فيك ضالتي فاهتديت .

وأصبحت قبلتي للعشق - فأنـا الآن أستطيع أن أقول لـك يا أنـــا .

وابتسمت فتوقفنا عن الكلام أنا وهي لنتفاجـــأ :

بتصفيق حار يأتي من خلفنا فالتفتنا لنكتشف أن عدداً من الزملاء في بهو المحكمة كانوا يراقبوننا ونحن نتحدث يبدوا أننا كنا نتحدث بصوت مرتفع دون أن نلقي بالاً لما يدور من حولنا .

ولكن انتهى الأمر بالتعبير عن السعادة من قبل الزملاء مع تمنياتهم لنا بالتوفيق بعد أن أيقنوا أن المعاتبة التي درات بيننا اتخذنا بها قرارا أنا وهي أن نكمل مسيرتنا معاً .

حقاً كان يوما سعيداً للغاية بالنسبة لي فطلبت منها أن نذهب إلي أقرب مكان كي نستطيع أن نكمل حديثنا .

فقالت لي وهي تبتسم :

أود أن أذهب إلى المطعم الذي كان سبباً في سوء التفاهم .

فوافقت على الفور وذهبنا إلى المطعم فجلسنا على الأريكة وكنت أنظر لها وكأنني لم أشاهدها من قبل كانت كالقمر وكانت كالشمس في ضُحاها وكان قلبي ينبض سريعاً فتحدثت وقالت الآن شعرت بأن الموج الذي فرق بيني وبين أخي حملني فوق الأمواج لكي ألقاك أنت .

أنا الآن أشعر بالأمان بعد الخوف الذي ملأ قلبي فطلبت منها أن تنصت لي وتتركني أتحدث فتقمصت دور القاضي وقلت لها بناء عليه :

أيتها المحامية الجميلة فردت بناء عليه أنا أحبك .

فحدثتها وأنا سعيد وقلت قررت المحكمة إحالة الأوراق إلى محكمة العاشقين مع استمرار حب المحامية الجميلة .

كم لديك من السطور الجميلة التى اخذت
منك الكثير من المجهود و الاعتناء
لكى تكون افضل ما يمكن
لكى تعبر بها عن شعور داخلى
لم تستطيع ان تشاركه مع احد غيرك
مهما كانت سطورك
قصص .. روايات .. اشعار .. مقالات
باللغة
العربية او الإنجليزية او الفرنسية

تواصل معنا لتشارك سطورك مع العالم